﴿١٠٨﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ

في هذه الآية الكريمة تحذير من عدم الامتثال لأوامر الله تعالى والخوض فيما لا مصلحة لهم فيه بعد أن بينت آية النسخ ضرورة الاذعان لتعاليم السماء في هيئة ما يوحي الله تعالى به إلى رسوله الكريم من قرآن يهدى للطريقة التي هي أقوم. وقد جاء التحذير في هذه الآية الكريمة في طريقة موبخة للمخاطبين مفادها أن عدم الامتثال والاذعان، والخوض فيما لا علم لهم به ولا مصلحة لهم وراءه قد يجرهم إلى التورط فيما تورط فيه قوم موسى عليه السلام حينما قالوا له صراحة: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وما إلى ذلك من اقتراحات تدل على قصر نظرهم وضيق عَطَنِهِمْ. ان على المؤمنين أن يمتثلوا لتعاليم السماء لأن فيما يوحي الله تعالى إلى رسوله كل الخير لهم، والله يعلم وهم لا يعلمون، فلا داعي للخوض في هذه الأمور لأن ذلك يؤدى بهم أخيراً إلى أن يتبدلوا الكفر بالايمان. والله تعالى يقول: « ومن يتبدل بالايمان فقد ضل سواء السبيل ».

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

حذرت الآية الكريمة المؤمنين من أن يغرر بهم بنو اسرائيل فيحملوهم على السير في الطريق الوعر والصراط غير المستقيم فينتهي الأمر بهم إلى أن يسألوا المصطفى ﷺ ما سأل بنو اسرائيل موسى عليه السلام من قبل. وفي هذه الآية الكريمة تحذير للمؤمنين، من أهل الكتاب الذين يودّ كثير منهم لو يردون المؤمنين من بعد أن من الله تعالى عليهم بأعظم نعمه وهي نعمة الإسلام، لو يردون المؤمنين كفاراً بالقرآن العظيم وبالرسول الكريم بأن يكونوا على دين اليهود ومن شاكلهم من أهل الكتاب أو على دين المشركين. وإنما تمنى كثير من أهل الكتب ويتمنون ذلك دائماً وأبداً لأجل الحسد النابع من ذوات أنفسهم للمسلمين الذين اختصهم الله تعالى بفضله فهداهم إلى الإيمان بالرسول الكريم العظيم. يحدث هذا من أهل الكتاب من بعد ما تبين لهم الحق، عن طريق التوراة والانجيل وفيهما نعت المصطفى ﷺ، وعن طريق القرآن الكريم ذاته الذين يعرفون أنه حق كما يعرفون أبناءهم وقد جاء في سورة الأنعام[1] قوله تعالى: « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » ومن مظاهر فضل الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء تأمر الآية الكريمة المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ بأن يعفوا وأن يصفحوا. والعفو ترك المؤاخذة بالذنب. والصفح ازالة أثره من النفس[2] حتى يأتي الله تعالى بأمره فيهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحا. والله تعالى على كل شيء قدير. يستطيع لو شاء أن يعجل لهم العقوبة ولكنه يمهلهم علهّم يعودون إلى جادة الصواب ومعروف مصير يهود المنطقة الذين خانوا الله تعالى ورسوله الكريم والذين ينقضون عهدهم في كل مرة. ولم تهدأ تلك المنطقة الّا بإجلائهم بإرادة الله تعالى على نحو ما نصت على ذلك سورة الحشر التي تحدثّت عن إجلاء الله تعالى بنى النّفير وسورة الأحزاب التي تحدّثت عن إنزال الله تعالى يهود بني قريظة من صياصيهم.

---

(١) الآية ٢٠ وانظر الآية ١٤٦ من سورة البقرة.

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٦٠.

﴿١١٠﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

أمرت الآية الكريمة السابقة المؤمنين بأن يعفوا عن أهل الكتاب الذين يود أكثرهم لو ردّوهم من بعد إيمانهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم وأن يصفحوا عنهم حتى يأتي الله بأمره. وهذه الآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يملأوا حياتهم بكل خير ينفعهم في أخراهم ويحقق لهم الحياة الطيبة في أولاهم. وفي مقدمة هذه الأمور الخيرة إقام الصلاة لأنها عماد الدين وعماد العبادات البدانية، وايتاء الزكاة لأنها عماد العبادات المالية. وتقرر الآية الكريمة أن كل خير يقدمه المسلم لنفسه سيجده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً، كما تقرر أن رب العزة بصير بما يعملون، وما توسوس به نفس كل واحد منهم. فينبغي للمسلم أن يريد بكل أعماله وجه ربه الأعلى فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال الا ما كان خالصاً لو جهه الكريم. نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم إنه على كل شيء قدير.

﴿١١١﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

لأهل الكتاب ضد المسلمين مجموعة من الأماني الباطلة والأهواء الضالة ومنها ألاّ ينزل عليهم خير من ربهم، ومنها أن يردوهم من بعد إيمانهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، ومنها ألا يدخلوا الجنة بمعنى أن يدخلوا النار والعياذ بالله. والآية الكريمة تشير إلى أمنية باطلة جديدة. والمراد بالقول: « قالوا » اليهود والنصارى لأن بين الفريقين اختلافاً كبيراً سيشير إليه السياق قريباً. فاليهود يقولون لن يدخل الجنة ألا من كان هودا. والنصارى يقولن لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. وتستدرك الآية الكريمة عليهم فوراً: « تلك أمانيهم » والمعنى أنهم يقولون ما يقولون دون علم ولا هدى كتاب منير وانما هم مدفوعون بأهوائهم التي تمليها عليهم أنفسهم الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم. والآية تطلب منهم بعد ذلك حجتهم الواضحة ان كانوا صادقين في القول والاعتقاد: لن يدخل الجنة ألا من كان هودا أو نصارى.

﴿١١٢﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

ليس عند اليهود ولا النصارى أي دليل على زعمهم بأن اليهود وحدهم أو النصارى وحدهم هم الذين سيدخلون الجنة وهذه الآية الكريمة تردّ عليهم وتكّذبهم وتثبت ما نفوه : بلى يدخل الجنة بإرادة الله تعالى من أسلم وجهه لله وهو محسن، والمعنى يدخل الجنة من خضع لله تعالى وأذعن لإرادته مستسلماً له جل وعلا ممتثلاً لأوامره، مجتنباً لنواهيه، محسناً في قوله وعمله سعيداً كل السعادة بالامتثال سائلاً الله تعالى من أعماقه المزيد من التوفيق لصالح الأعمال والطيب من الآمال. ان الذين تعنو جباههم للحي القيوم لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم بشأن ما يستقبلون، ولا هم يحزنون بشأن ما يستدبرون. وقد اختير الوجه لشرفه. وان ذل الوجه للعزيز الجبار المتكبر منتهى العز وفي ذلك منتهى الغبطة والسعادة.

﴿١١٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

سبب النزول

عن ابن عباس : قدم أهل نجران على النبي ﷺ فأتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند النبي ﷺ وقالت كل فرقة منهم للأخرى : لستم على شيء . الآية[1] .

في سياق الحديث عن بني اسرائيل تحوّل إلى النصارى أيضاً لأن التعبير بأهل الكتاب يشمل كلا من اليهود والنصارى . والملاحظ أن هذا العبير مرّ بنا في أكثر من آية واحدة[2] وفي هذه الآية الكريمة نحن بصدد حديث مباشر عن هذين الفريقين إثْر الحديث في الآية قبل السابقة عن ادعاء كل من الفريقين أن الجنة مقصورة عليه وحده . والحديث في هذه الآية الكريمة يبين لماذا زعم كل من الفريقين من أهل الكتاب أن الجنة خاصة به مقصورة عليه . ان اليهود أتباع موسى عليه السلام يقولون ان النصارى أتباع عيسى عليه السلام ليسوا على شيء يصح أن يعتد به . وان النصارى يقولون ان اليهود ليسوا على شيء يصح أو يعتد به . يقول كل من الفريقين ذلك في الوقت الذي يقرأ فيه كل من الفريقين التوراة والانجيل . وكل منهما مصدق للآخر ، لأنهما من عند الله ولأن الكتب السماوية كلها يصدق بعضها بعضاً ، ولأن في كتاب اليهود تصديق عيسى وفي كتاب النصارى تصديق موسى .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٤٦٤ .

(٢) الآية ١٠٥ ، والآية ١٠٩ .

وبهذا القول الصادر من اليهود والنصارى المخالف للكتابين السماويين المتعلقين بالفريقين، يتفق اليهود والنصارى مع الذين لا يعلمون، من مشركي العرب وسواهم. ولا يصح عقلاً وعرفاً أن يستوى الذي يعلمون والذين لا يعلمون ولكن اليهود والنصارى اختاروا عمداً أن يستووا بالذين لا يعلمون، الذين ليس لهم علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وتجاه هذا الاعتداء من كل من الفريقين على الآخر واتهامه بأخطر الاتهامات بأنه في طريق الضلال، مخالفاً بذلك لتعاليم الكتاب السماوي الذي يقول بغير ذلك، سيحكم الله سبحانه وتعالى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون لأن كل وسائل الهداية في هذه الدنيا قد تحققت ومع ذلك أصرّ اليهود والنصارى على أن يقولوا بغير علم.

﴿١١٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

إذا كانت الآية الكريمة السابقة قد نصت على كون كل من اليهود والنصارى قد قالوا ما قال الذين لا يعلمون من كون فريق النصارى وفريق اليهود ليسوا على شيء يصحّ أو يعتدّ به فإن هذه الآية الكريمة تشير إلى خطوة أبعد مدى من السابقة من ضلال بعض أهل الكتاب، وتتخذ من سوء صنيع هؤلاء منطلقاً لوضع قاعدة عريضة تتعلق بظلم بعض الناس أنفسهم والآخرين ظلماً كبيراً، وذلك بمنعهم عباد الله تعالى أن يرتادوا بيوت الله تعالى. أما هذا المنطلق فهو كون النصارى الذين قالوا: ليست اليهود على شيء يصحّ ويعتد به قد تجاوزوا القول الظالم إلى الفعل الظالم وذلك حينما أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس بغضاً لليهود[1] وإذا كان هذا مرتبطاً بالمساجد في الآية الكريمة، أعني بيت المقدس ومحاريبه[2] فإن الآية الكريمة عامة في كل عمل مشابه، خاصة إذا عرفنا أن لفظة مسجد انما ترتبط في المقام الأول بمكان العبادة في الإسلام. وعليه فإن هذا القول يشمل مشركي مكة الذين منعوا المصطفى ﷺ والمؤمنين عام الحديبية من زيارة البيت الحرام. كما تشمل كل من منع عباد الله تعالى من تحقيق الهدف الذي من أجله أذن الله تعالى أن ترفع بيوته جل وعلا، وهذا الهدف هو أن يذكر فيها اسمه جل وعلا وفي ذلك تخريب لها. أما إذا اقترن بمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه جل وعلا تخريبها وهدمها فذلك هو الظلم الذي ليس وراءه ظلم.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٤٦٥.

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٦٤.

ومعنى القول : ومن أظلم أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه جل وعلا وسعى مادياً ومعنوياً في خرابها. ان أولئك ينبغي أن يدفعهم الذين يشهدون ألا اله ألا الله وأن محمداً رسول الله دَفْعاً كي تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. إن أولئك ما ينبغي لأحد منهم أن يدخلها آمناً بل خائفاً والمعنى أيها المؤمنون « جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفاً كقوله: وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله. فإنه نهي ورد بلفظ الخبر »[1] إن أولئك بنص الآية الكريمة لهم خزى وذل وهوان في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

(١) تفسير القرطبي ص ٤٦٦ .

﴿١١٥﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ

الآية الكريمة تنص على أن لله سبحانه وتعالى الجهات كلها. وقد ذكر المشرق والمغرب لأنهما أوضح الجهات بالقياس إلى شروق الشمس وغروبها. فأينما اتجه العباد في صلاتهم امتثالاً لأمره جل وعلا فثمة الجهة التي أمر بها جل وعلا ورضيها. إن الله واسع عليم. ويلاحظ اتساق لفظ واسع من اتساع الجهات التي نص من بينها على المشرق والمغرب. ويمكن أن ينظر إلى هذه اللفظة من زاوية رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء والتي وسعت هنا عباده في دينهم، فلا يكلفهم جل وعلا ما ليس في وسعهم. وهذه السعة في الرحمة وفي العطاء يتلوها السعة في العلم، فالله تعالى لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو العليم بما ينفع عباده.

وهذه الآية الكريمة يمكن أن ينظر إليها من زوايا عدة.

ومن هذه الزوايا أن السياق أشار إلى قول اليهود ليست النصارى على شيء وقول النصارى ليست اليهود على شيء وكلاهما مخطيء ويعلم أنه مخطيء. وقد تجاوز القوم القول الخاطيء إلى العمل الخاطيء، فالنصارى مثلاً يعينون بختنصّر المجوسي ضد اليهود مما أتاح له تخريب بيت المقدس. وبذلك منعوا المصلّين من الصلاة فيه[1] فالآية الكريمة يصح أن توجه إلى هؤلاء الممنوعين من الصلاة في بيت الله بأن لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله.

ومن هذه الزوايا أن المشركين منعوا المصطفى ﷺ والمؤمنين من زيارة البيت الحرام والصلاة فيه عام الحديبية، فالآية الكريمة يصح أن توجه إلى هؤلاء المؤمنين الممنوعين بأن لله تعالى المشرق والمغرب. هذا إلى أنّ رب العزة جعل للمسلمين الأرض مسجداً وطهوراً.

---

(١) تفسير القرطبي ص ٤٦٤.

ومن هذه الزوايا أن اليهود قد استحسنت صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس وقالوا ما اهتدى الا بنا. فلما حوّل إلى الكعبة قالت اليهود: «ما ولا هم عن قبلتهم التي كانوا عليها» فنزلت الآية الكريمة. فوجه النظم على هذا القول أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بيّن الله تعالى أن له أن يتعبَّد عباده بما شاء. فإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى بيت المقدس، وإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى الكعبة[1].

ومن العلماء من نظر إلى الآية الكريمة من زاوية أخرى. فمن هؤلاء من ذهب إلى كونها نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة. وقد ذهب أكثر العلماء إلى هذا. قالوا: إذا صلى في الغيم لغير القبلة ثم استبان له بعد ذلك أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة. وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وقال ابن عمر نزلت في المسافر يتنفّل حيثما توجهت به راحلته أخرجه مسلم[2].

(١) تفسير القرطبي ص ٤٧٠.

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٦٧، ٤٦٨.

﴿١١٦﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ

تورط اليهود والنصارى ومشركو العرب وغيرهم من غير العالمين في القول : ليست اليهود على شيء. وليست النصارى على شيء. وهذه الآية الكريمة تنص على خطأ شنيع وذنب عظيم لا يغفره الله تعالى تورط فيه اليهود والنصارى ومشركو العرب وغيرهم من المشركين . أما هذا الخطأ الشنيع والذنب العظيم، فهو الزعم بأن الله سبحانه وتعالى اتخذ ولداً . « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولوا الا كذباً » أما اليهود فزعموا أن عزيراً ابن الله . وأما النصارى فزعموا أن المسيح ابن الله ، وأما مشركو العرب فزعموا أن الملائكة بنات الله . وكان الردّ على هؤلاء الظالمين على الفور عنيفاً : سبحانه . ومعنى سبحان التبرئة والتنزيه والمحاشاة من قولهم: اتخذ الله والدا . بل هو الله تعالى واحد في ذاته . أحد في صفاته . لم يلد فيحتاج إلى صاحبة . أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة . وخلق كل شيء ولم يولد فيكون مسبوقاً . جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً[1] ان كل ما في السماوات والأرض مطيعون وخاضعون ومنقادون له جل وعلا .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٤٧٢ .

﴿١١٧﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ

نصت الآية الكريمة على أن رب العزة له ما في السماوات والأرض كل له قانتون وذلك عقب الإنكار الشديد على القائلين بأن الله اتخذ ولدا . وهذه الآية الكريمة تقرر أن رب العزة أوجد السماوات والأرض على غير مثال سابق فهو جل وعلا المخترع لهما. وإذا قضى أمراً في السماوات أو في الأرض كخلق الملائكة أو آدم عليه السلام أو عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما يقول له جل وعلا كن فيكون . وإذا كان خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس بنص القرآن الكريم ، فكيف يجرؤ النصارى مثلاً على الزعم بأن عيسى ابن مريم عليه السلام ابن الله . ألِأنّ عيسى عليه السلام ليس له أب ؟ وهل يختلف خلق عيسى عليه السلام عن خلق آدم عليه السلام ، الذي ليس له أبوان ؟ « إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين »[1] ان الأمور كلها ، ما كان منها في أعيننا جليلا أو هيّنا ، سواء في حق الذات العلية . انه جل وعلا إذا أراد خلق شيء قال له كن فيكون ومن ذلك خلق عيسى عليه السلام وعزير والملائكة والسماوات والأرض وما فيهن . لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه جل وعلا .

---

(١) سورة آل عمران ٥٩ ، ٦٠ .

﴿١١٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

تتحدث الآية الكريمة عن الذين لا يعلمون . وسبق أن نزلت الآية الكريمة الثالثة عشرة بعد المائة اليهود والنصارى منزلة الذين لا يعلمون . ففي الإمكان إذن نفسر الذين لا يعلمون هنا باليهود والنصارى ومشركي العرب ، خاصة وأنهم يشتركون في الظلم حينما يمنعون مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه ، وفي الزعم أن الله تعالى اتخذ ولدا . وفي كفرهم بالقرآن المجيد والرسول الكريم . ويكون الذين قبلهم في قوله تعالى : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » الذين يتفقون معهم في الموقف من الرسل السابقين . ويمكن أن نفسر الذين لا يعلمون بمشركي العرب وهم الذين نزل اليهود والنصارى منزلتهم ويكون الذين قبلهم هم اليهود والنصارى .

إن اليهود مثلاً طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله تعالى جهرة . ويلاحظ أن هذا الطلب بعد مجيئه عليه الصلاة والسلام بالتوراة وبعد أن كلمه ربه جل وعلا . وان كفار مكة الذين لا يؤمنون بالبعث يجيء عنهم مثلاً في سورة الفرقان[1] قوله تعالى : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عُتُوًّا كبيراً » ويجيء عنهم في سورة الإسراء[2] « وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقروءه قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً » .

---

(١) الآيــة ٢١ .

(٢) الآيات ٩٠ ، ٩٣

فهؤلاء الذين لا يعلمون ، ويمكن أن يكونوا مشركي العرب باعتبارهم ليس لديهم كتاب سماوي ولم يأتهم نذير من قبل ، يستحثون المصطفى ﷺ أن يلبي طلباتهم ويحقق اقتراحاتهم بأن يكلمهم الله تعالى في شأن رسالة محمد ﷺ أو أن تأتيهم آية تشهد برسالته ﷺ ، وكأن القرآن الكريم ، وهو آية الآيات على صدقه ﷺ ليس آية ، لذا هم يطلبون سواها. وإذا كانوا لم يؤمنوا بالآية التي هي من جنس ما نبغوا فيه ، فكيف يؤمنون بغير القرآن الكريم من الآيات التي لن تكون في ميدان البيان الذي يتفوق فيه مشركو العرب. وكل ذلك دليل على أن القوم متعنتون وليسوا جادين فيما يقولون ويطلبون ، بل هازلون. وإنما طلب مشركو العرب مثلاً ، ما طلب اليهود من قبلهم مثلاً ، لأن قلوب الكافرين متشابهة. وإن الآية الكريمة لتقرر أن رب العزة قد بين الآيات لقوم يوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها. فليس ثمة آية واحدة فقط كما طلب المتعنتون وانما هنالك آيات كافية لحمل كل منصف على الإيمان بالقرآن الكريم والرسول العظيم.

﴿١١٩﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ

يتجه الخطاب في هذه الآية الكريمة إلى المصطفى ﷺ الذى كادت نفسه تذهب حسرات لعدم إيمان الكثيرين به. وفي هذا تسلية له عليه الصلاة والسلام وتسرية عنه. إنه ﷺ قد أرسله جل وعلا بالحق، أي بالقرآن الكريم معجزة الدين والحق الكبرى الخالدة، مبشراً للمؤمنين ومنذراً للكافرين. ان البلاغ هو منتهي الطلب منه ﷺ، بأن يبشر وأن ينذر، أما الحساب فعلى الله تعالى. وهو كذلك غير مسئول عن أصحاب الجحيم الذين استحقوا النار وبئس القرار بعد أن قامت عليهم الحجة البالغة.

﴿١٢٠﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ

الخطاب في الآية الكريمة وإن كان متجهاً أساساً إليه ﷺ ، فإن المقصود وراء ذلك أمته ﷺ . والآية الكريمة تقرر بصريح العبارة أن كلا من اليهود والنصارى ، لن يرضوا عن المسلمين مهما كانت التنازلات التي يقدمها المسلمون لهم. ان الذي يرضيهم شيء واحد فقط. أن يرتدوا – لا سمح الله تعالى – عن الإسلام. وهل يرضى اليهود أن يرتد المسلمون عن الإسلام إلى النصرانية مثلاً ؟ لا إنهم يرضيهم ان يرتد المسلمون إلى اليهوديّة فقط. وهل يرضى النصارى ان يكون الارتداد إلى اليهوديّة ؟ لا . ان الارتداد ينبغي أن يكون إلى النصرانية فقط . وهذا معناه أنّ ارضاء أحد الفريقين معناه اغضاب الفريق الآخر لأنّ اليهود قالت ليست النصارى على شيء ولأن النصارى قالت ليست اليهود على شيء.

وإلى أي شيء يدعو اليهود والنصارى ؟ انهم يدعون بنص الآية الكريمة إلى أهوائهم، لأن كلا من اليهود يّة والنصرانية قد انحرف بها أتباعها عن نبعها الأصلى الصافي النقي. وكيف يصح عقلاً أن يترك المسلمون هدى الله تعالى ، وهو دين الاسلام الذي أكمله الله تعالى لنا، وأتم به النعمة علينا، ورضيه لنا ، إلى أهواء اليهود والنصارى ؟ ان هذا أمر لا يصح عقلاً ولا نقلاً . وتختم الآية الكريمة بتحذير المسلمين لله رب العالمين من اتباع أهواء اليهود والنصارى . ان عليهم ان يتمسكوا بهدى الله تعالى وأن يتبعوا العلم الذى أوحي الله تعالى به إلى محمد ﷺ ، قرآناً يتلى وحديثاً يروي . وان الذي يعرض عن ذكر الله تعالى فإن له معيشة ضنكا. ويحشره رب العزة يوم القيامة أعمى . وليس له من الله تعالى ولي يتولى أموره ويرعى شئونه ولا نصير يمنعه ويحميه.

﴿١٢١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

هذه الآية الكريمة يمكن أن تشمل كل الذين آتاهم الله تعالى الكتاب . فالذين يتلون الكتاب السماوى الذي آتاهم الله تعالى اياه حق تلاوته بأن يتدبروه ويفهموه ويترجموا تعاليمه إلى عمل أولئك يؤمنون بذلك الكتاب .

بخلاف الذين لا يتلونه حق تلاوته فضلاً عن فهمه والعمل به ، بل يكفرون به ، فأولئك هم الخاسرون . وحينما يتلو اليهود والنصارى التوراة والانجيل كما ينبغي أن يتليا ، وفي كل منهما نعت المصطفى ﷺ بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي عليهم ، فإن كلا من اليهود والنصارى الذين يؤمنون بتعاليم التوراة والانجيل ، سيؤمنون برسالة محمد بن عبدالله ﷺ . أما من يكفر بذلك الكتاب السماوى فأولئك هم الخاسرون .

﴿١٢٢﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ

﴿١٢٣﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ

أولى الآيتين الكريمتين هي ذات الآية الكريمة السابعة والأربعون في هذه السورة الكريمة. ثم ان بين الآية الكريمة التالية والآية الثامنة والأربعين في السورة تشابها كبيراً في الصياغة. والملاحظ أن الحديث عن بني اسرائيل في هذه السورة الكريمة ينتهي[1] بهاتين الآيتين الكريمتين اللتين يطلب في أولاهما من بني اسرائيل أن يذكروا نعمه جل وعلا الوفيرة عليهم وأنه جل وعلا فضلهم على عالمي زمانهم. وأن يعملوا في هذه الحياة وفق هذا العلم، لأن الاحسان جزاء الاحسان. ويطلب في الآية الكريمة الثانية من بني اسرائيل أن يتقوا يوم القيامة بالأعمال الصالحة التي يريدون بها وجه الله تعالى، ذلك اليوم الذي لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل من هذه النفس فداء ولا تنفع هذه النفس شفاعة. وأخيراً هم لا ينصرون بمعنى أنهم لا يمنعون من عذاب الله تعالى.

---

(١) الآية ٢١١ من سورة البقرة ذكرت بنى إسرائيل عرضاً وكذلك الآيات ٢٤٦ - ٢٥٢

إبراهيم عليه السلام المسلم لله رب العالمين

﴿١٢٤﴾ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ

يتحول السياق في السورة الكريمة إلى إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء . والمعنى : واذكر يا محمد إذ اختبر رب العزة وامتحن إبراهيم عليه السلام بمجموعة من الأوامر والنواهي بواسطة كلمات القيت على إبراهيم عليه السلام وبفضل الله تعالى نجح إبراهيم عليه السلام في الامتحان ، إذ أتم الكلمات فقام بكل ما طلب منه أن يعمل وأن يترك . وبعد الامتحان والنجاح فيه أخبره رب العزة بأنه جل وعلا سيجعله قدوة في الدين للناس يتأسون به ويأتمون . وإن إبراهيم الحليم الأواه المنيب إلى الله تعالى ، يتذكر في غمرة الفرح ذريته ولا ينساهم . فيدعو ربه جل وعلا بأن يجعل من ذريته أئمة يأتم بهم الناس فيما ينفعهم في الحياتين الأولى والآخرة . وكان الجواب من الله تعالى : « لا ينال عهدى الظالمين » بمعنى أن عهد الله تعالى بالإمامة لا ينال الظالمين ، الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون الآخرين بعمل السيئات . ويظل الظّلم في صعود حتى يصل إلى الظلم العظيم ، وهو الاشراك مع الله تعالى غيره . وقد قال عز من قائل[1] : « إن الشرك لظلم عظيم » . وحينما يحرم الظالمون من أن ينالهم عهد الله تعالى ويشملهم ، فذلك معناه أن غير الظالمين يشملهم عهد الله تعالى بالإمامة .

---

(١) سورة لقمان ١٣ .

﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

يستمر الحديث في هذه الآية الكريمة عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي جعله الله تعالى إماماً. ومعنى الآية الكريمة. واذكر يا محمد إذ جعلنا الكعبة البيت حرم مرجعاً يثوب إليه الناس من كل جانب، فلا يعدم البيت الحرام قاصداً من الناس وقتا من الأوقات ولا لحظة من اللحظات، كما جعلناه مأمنا للناس من الظلم والإغارات بينما يتخطف الناس من حوله. وقد أمر رب العزة عباده أن يتخذوا من مقام إبراهيم عليه السلام، أي موضع قدميه، مكاناً للصلاة. وقيل عن مقام إبراهيم انه الحَجَر الذي قام عليه عند بناء البيت[١] وفيه أثر قدميه[٢] وقيل الموضع الذي كان فيه الحَجَر حين وضع عليه قدميه[٣] وقد أمر الله تعالى إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام بأن يطهرا بيته جل وعلا الذي أضيف إليه عز وجل اضافة تشريف وتكريم، للذين يطوفون بالبيت العتيق، والذين يعكفون فيه، بمعنى الذين يجاورون فيه ويلزمونه ويجلسون فيه دون طواف، والذين يصلون. وقد خص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصطفى إلى الله تعالى[٤] والمراد بتطهير البيت العتيق من كل ما لا يليق به من أوساخ ويتعارض مع توحيد الله تعالى الذى أذن بأن ترفع بيوته كي يذكر فيها اسمه جل وعلا وحده لا شريك له. وما يصح في حق البيت العتيق يصح في كل بيوت الله تعالى. وما صح خطاباً لإبراهيم واسماعيل عليهما السلام هو خطاب لكل المسلمين. روي ابن عمر قال عمر: وافقت ربي في ثلاث. في مقام إبراهيم. وفي الحجاب. وفي أسارى بدر. خرّجه مسلم وغيره. وخرّجه البخاري عن أنس[٥].

---

(١) الجلالين.
(٢) الكشاف ١/٢٣٧.
(٣) الكشاف ١/٢٣٧.
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٠٠.
(٥) تفسير القرطبي ص ٤٩٧.

﴿١٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

تشتمل هذه الآية الكريمة على دعوة إبراهيم عليه السلام لهذا البلد الأمين. والآية الكريمة تطلب من المصطفى ﷺ أن يذكر إذ قال إبراهيم عليه السلام داعياً ربه جل وعلا أن يجعل مكة المكرمة بلداً آمنا لا يسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصطاد صيده ولا يختلى خلاه (الخلى : النبات الرطب الرقيق ما دام رطباً. واختلاؤه قطعه) وأن يرزق من الثمرات من آمن من أهله بالله واليوم الآخر وعمل وفق ذلك العلم. وقد خص إبراهيم عليه السلام المؤمنين قياساً على الأمامة التي لا ينالها الظالمون من ذريته عليه الصلاة والسلام، فأخرج في دعائه الكافرين من ذريته وإنّ رب العزة الذي سبقت رحمته عذابه والذي وسعت رحمته كل شيء لا يستجيب فقط دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام بأن يرزق المؤمنين من أهل البيت العتيق من الثمرات، إنما يشمل فضله الكافرين كذلك، علهم يقومون بما يجب عليه شكراً لله تعالى على نعمه وآلائه بأن يهجروا الكفر، وأن يتحولوا مسلمين لله رب العالمين مؤمنين قانتين. أما إذا أصرَّ الكافرون على كفرهم فإن رزق الله تعالى إياهم من الثمرات يعتبر متاعاً يتمتَّعون به إلى أجل محدود، ثم يرغمون ويلجئون في الآخرة إلى عذاب النار وبئس المصير. وربما أضيف إلى عذاب الآخرة عذاب في الدنيا.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

الآية الكريمة تتحدث عن بناء إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام ، البيت العتيق بأمره جل وعلا . والمعنى واذكر يا محمد إذ يرفع إبراهيم واسماعيل أساس البيت العتيق قائلَيْن ربنا تقبل منا صالح اعمالنا واجعلها خالصة لوجهك الكريم فانك يا الله لا تقبل من الأعمال الصالحة ألا ما كان خالصاً لك . انك يا لله السميع لدعائنا العليم بما تكنه ضمائرنا من اخلاص العبادة لك ، وحدك لا شريك لك ، وقصدنا بأعمالنا الصالحة مرضاتك ربنا .

﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

بالرغم من فضل الله تعالى العميم على إبراهيم واسماعيل عليهما السلام، فإنهما عليهما السلام يضربان المثل الأعلى في اليقظة والحذر وعدم الغفلة، سائلَيْنِ الله تعالى أن يستمر حظهما من رعاية الله تعالى لهما. انهما يسألان الله تعالى أن يجعلهما مسلمين له منقادَيْن ممتثلَيْن لأوامره جل وعلا منتهيَيْنِ عن نواهيه جل وعلا. وان السؤال باستمرار الهداية يشمل ذريتهما « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » وقد خصا بالحديث المؤمنين المتقين من ذريتهما وليس الظالمين منهم. كما سألا الله تعالى أن يريهما هما وأتباعهما شرائع العبادة. ويستمر درس ابراهيم واسماعيل عليهما السلام في اليقظة وعدم الغفلة كي تستفيد الأمة منهما، حينما يطلبان من الله تعالى أن يقبل توبتهما. فإذا عرفنا أن الانبياء معصومون أدركنا مدى التواضع الذي يتحلى به كل من إبراهيم واسماعيل عليهما السلام واليقظة وعدم الغفلة وعدم الاعتماد على ذات المرء طرفة عين. إن هذا درس بليغ يلقيه كل من إبراهيم واسماعيل عليهما السلام في ضرورة أخذ الحيطة والحذر والاستعانة المستمرة المطلقة بالله تعالى فلا حول ولا قوة لأى إنسان إلا بإرادة الله تعالى. وتختم الآية الكريمة بصفتين للذات العلية. التواب وهي صفة تتمشى مع طلب التوبة في القول «وتب علينا» والرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء وقد نال المؤمنون من الرحمة حظاً موفوراً ونصيباً مخصوصاً، وقد قال تعالى في سورة الأحزاب[1] « وكان بالمؤمنين رحيماً ».

---

(١) الآية ٤٣.

﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

إن إبراهيم عليه السلام الحليم الأواه المنيب، ليدعو ربه عز وجل بأن يبعث في الأمة المسلمة من ذريته عليه الصلاة والسلام رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الكتاب العزيز المنزل عليه، ويعلمهم معانيه، وسنته ﷺ، ويفقههم في الدين، ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس. ان الله سبحانه وتعالى هو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه.

وقد استجاب الله تعالى دعوة إبراهيم عليه السلام وكان هذا الرسول من الأمة المسلمة هو محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين « روى خالد بن معدان أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن نفسك. قال: نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى »[1].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥١٦.

﴿١٣٠﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

إن الدين عند الله الإسلام . ومعنى الإسلام الاستسلام لله تعالى بالخضوع والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك . ودين الإسلام هذا هو الذي بعث الله تعالى به رسله . وقد بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالحنيفية السمحة ، ليلها كنهارها . ومعروف أن إبراهيم عليه السلام يسبق زمناً كلا من موسى وعيسى عليهما السلام . وهذه الآية الكريمة تبيّن ان الذي يرغب عن دين ابراهيم عليه السلام وشريعته هو فقط مَنْ سفه نفسه بمعنى أنه جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها ، وفعل بها من السفه ما صار به سفيها : « وقد استدل بهذه الآية من قال : إن شريعة إبراهيم شريعة لنا الا ما نسخ منها . وهذا كقوله : ملّة ابيكم إبراهيم ، أن اتبع ملة إبراهيم »[1] .

والآية الكريمة تقرر أن رب العزة قد اصطفى إبراهيم عليه السلام في الدنيا بالرسالة وبالخُلّة[2] قال تعالى[3] : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » وانه عليه الصلاة والسلام في الآخرة لمن الصالحين المنعم عليهم . والمعروف أن صفة الصلاح مشتركة بين كل المنعم عليهم الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى من سورة النساء[4] : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً » . فهذا سليمان عليه السلام يجيء على لسانه قوله تعالى[5] : « فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التّى أنعمتَ عليّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » . وهذا يوسف الصديق عليه السلام يجيء على لسانه قوله تعالى[6] : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليّى في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقنى بالصالحين » . ان كلا منهما يسأل ربه جل وعلا أن يدخله برحمته في عباده الصالحين وأن يلحقه بالصالحين .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥١٨ .
(٢) الخلة بضم الخاء : الصداقة .
(٣) سورة النساء ١٢٥ .
(٤) الآية ٦٩ ، ٧٠ .
(٥) سورة النمل ١٩ .
(٦) سورة يوسف ١٠١ .

﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

العامل في إذ قوله : اصطفاه . أي اصطفيناه إذ قال له ربه أسلم[1] ومعنى أسلم : انقد لله وأخلص له دينك[2] والإسلام هنا على أتم وجوهه. والإسلام في كلام العرب الخضوع والانقياد للمستسلم[3] كان جواب إبراهيم عليه السلام لأمر ربه جل وعلا بالإسلام له على الفور : قال أسلمت لرب العالمين . أي انقدت لله تعالى وأخلصت له ديني .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥١٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير القرطبي ص ٥١٩ .

﴿١٣٢﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ

إن أكبر ما يهتم له رسل الله تعالى هو استمرار ذراريهم وأتباعهم على الحنيفية السمحة بعد موت الرسل. وهذا هو الذي نصادفه في الآية الكريمة هنا. فابراهيم ويعقوب عليهما السلام يوصى كل منهما بنيه بأن يعض بالنواجذ على كلمة الإسلام « أسلمت لرب العالمين » لقد قال كل من النبيَّيْنِ الكريمين لبنيه: ان الله تعالى جلت قدرته قد اختار لكم الدين القيم الصحيح، وهو دين الإسلام لله رب العالمين، فلا تموتن الا وأنتم حقيقةً مسلمون. وبما أن كل إنسان سيموت، ولكنه لا يدرى متى وبأى أرض يموت، فهذا معناه أن على كل إنسان أن يستعد كل لحظة للقاء وجه ربه الأعلى بأن يكون مسلماً لله رب العالمين، مخلصاً العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، مترجما تعاليم الإسلام إلى عمل يريد به وجه ربه الأعلى. إن هذه الوصية في الحقيقة وصية كل أنبياء الله تعالى ورسله لأنهم أحرص الخلق على استمرار عقيدة التوحيد خالصة من كل شائبة، نقيةً وصافية.

﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ

الخطاب لليهود والنصارى الذين يَنْسُبُون إلى إبراهيم ما لم يوص به بنيه، وأنهم على اليهوديّة والنصرانية فرد الله عليهم قولهم وكذبهم[1] وقد جاء في سورة آل عمران[2] قوله تعالى: يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوارة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين».

والآية الكريمة تنكر على القوم في أسلوب الاستفهام أن يكونوا حاضرين حينما حضرت يعقوب عليه السلام مقدمات الموت وأسبابه إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدى؟ وما عامّ في كل شيء[3] لذا عبر عن المعبود بما ولم يقل من لأنه أراد أن يختبرهم[4] ويعلم ماذا يعبدون بعد وفاته وكان الجواب الذي قرت به عين يعقوب عليه السلام: قالوا نعبد إلهك اله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً. لقد صرحوا بأنهم يعبدون الإله الواحد المعبود بحق وحده لا شريك له، والذي هو إله يعقوب وإله جده إبراهيم وعمه اسماعيل وأبيه اسحاق عليهم السلام وقد عبر عن الجميع بلفظ الآباء لأن الجد والعم بمنزلة الأب. وقد راعى السياق الترتيب الزمني ابتداءً بالجد ابراهيم عليه السلام فالعم اسماعيل عليه السلام لأنه أكبر سناً من اسحاق عليه السلام. وقد ختمت الآية الكريمة بتعميق مفهوم الاستسلام لله تعالى والخضوع له «ونحن له مسلمون».

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٢٢.
(٢) الآيات ٦٥ – ٦٨.
(٣) الكشاف ١ / ٢٤٠.
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٢٢.

﴿١٣٤﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

إن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام وأبناءهما الموحدين المسلمين لله رب العالمين، أمة قائمة برأسها قد سلفت ومضت، لها ما كسبت من الحسنات وعليها ما اكتسبت من السيئات وأنتم أيها المخاطبون كذلك لكم ما كسبتم من الحسنات وعليكم ما اكتسبتم من السيئات. ولا تسألون عما كانوا يعملون فلا تنفعكم حسناتهم ولا تضركم سيئاتهم. وهذا المعنى في مثل قوله تعالى: « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى.

﴿١٣٥﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

القائلون هم يهود المدينة ونصارى نجران . فاليهود يريدون من المسلمين أن يكونوا يهودا . والنصارى يريدون منهم أن يكونوا نصارى . وقد حصر كل من الفريقين الهداية في دينه . وكان الردّ عليهم الحاسم من رب العزة : قل بل ملة ابراهيم حنيفا . والمعنى قل يا محمد بل نتبع ملة ابراهيم عليه السلام مائلاً عن كل الأديان المكروهة الباطلة إلى الدين الحق ، دين الإسلام لله رب العالمين . وفي القول : « وما كان من المشركين : تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلا منهم يدعى اتّباع إبراهيم وهوعلى الشرك »[1] .

(١) الكشاف ١ / ٢٤١ .

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

خرّج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الآية [1] .

والخطاب في القول : قولوا : للمؤمنين . والمعنى أن المسلمين لله رب العالمين يؤمنون بالله تعالى وبالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين وبالصحف العشر التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء وبما أنزل الله تعالى إلى اسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط من آيات بينات . « والأسباط ولد يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشر ولداً ولد لكل واحد منهم أمة من الناس واحدهم سبط »[2] والسبط : الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد[3] والسبط في بني اسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد اسماعيل . وسموا الأسباط من السبط (بحركتين) وهو التتابع . فهم جماعة متتابعون[4] كما ان المسلمين لله رب العالمين يؤمنون بالتوراة التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام وبالانجيل الذي آتاه الله تعالى عيسى عليه السلام ويؤمنون بكل الآيات التي جاءت النبيين من ربهم . ان المسلمين لا يفرقون بين أحد من هؤلاء ، أي أنّ المسلمين لا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كما فعلت اليهود والنصارى . وأحد في معنى الجماعة ولذلك صح دخول بين عليه[5] ثم إنّ أتْباع محمد ﷺ مسلمون لله رب العالمين منقادون له خاضعون لأوامره ونواهيه جل وعلا .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٢٤ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٢٥ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٢٦ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٢٥ .
(٥) الكشاف ١ / ٢٤١ .

﴿١٣٧﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

المطلوب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بمثل ما آمن به المسلمون مما نصت عليه الآية الكريمة السابقة. فعلى اليهود أن يؤمنوا بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام وعلى النصارى أن يؤمنوا بمحمد ﷺ. فإذا تحقق لهم هذا النوع من الإيمان الذي لا يفرق معه بين أحد من رسله جل وعلا، تحققت لهم الهداية. أما إذا تولوا وقد بان لهم الحق فإنما هم في معاندة ومناوأة ومخالفة ومجادلة لا غير. وان رب العزة ليعد المصطفى ﷺ ووعده الحق، بأنه سيكفيه ﷺ شر عداونهم وعنادهم. وقد كان ذلك في نصر الله تعالى رسوله ﷺ على كل يهود المنطقة. وتقرر الآية الكريمة أن الله سميع لكل ما يقال عليم بكل ما يفعل. فلا يخفى عليه جل وعلا شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿١٣٨﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ

صبغة الله مصدر مؤكد لآمناً . ونصبه بفعل مقدَّر أي صبغنا الله[1] قال ابن عباس : هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم (أصفر)[2] يقال له ماء المعمودية ، فصبغوه بذلك ليطهّروه مكان الختان . لأنّ الختان تطهير . فإذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانياً حقاً . فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال : صبغة الله . أيْ صبغة الله أحسن صبغة وهي الإسلام . فسمىّ الدين صبغة استعارة ومجازا ، من حيث تظهر أعماله وسمته على المتديّن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب[3] وبطبيعة الحال لا أحد أحسن من الله صبغة حيث قد أكمل لنا دين الإسلام وأتم به النعمة علينا ورضيه لنا ، ويستمر المؤمنون قائلين امتداداً للقول في الآية الكريمة السابقة : « ونحن له عابدون » والمعنى نحن له مفردون بالعبادة وحده لا شريك له وفق تعاليم الإسلام الذي هو صبغة الله تعالى لنا . ومن ثم تتجلى هذه الصبغة في العقيدة وفي العبادة وفي السلوك وفي المعاملة وفي كل شئون الحياة .

---

(١) الجلالين وانظر الكشاف ١/٢٤١ .

(٢) زيادة من الكشاف ١/٢٤١ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٥٢٨ .

﴿١٣٩﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ

الخطاب هنا للمصطفى ﷺ ، وأمته تبع له في ذلك ، بأن يقول لليهود والنصارى في هيئة الاستفهام الانكاري : أتجادلوننا وتجاذبوننا الحجة في شأن الله تعالى واصطفائه خاتم الأنبياء والمرسلين مِنَّازاعمين أنكم ابناء الله وأحباءوه وأنه لو كان ثمة نبي لكان منكم لكونكم أهل الكتاب الأول وقبلتكم أقدم ؟ ان الفضل من الله تعالى ويختص بفضله وبرحمته من يشاء من عباده ، فإذا كنا نحن وأنتم نستوى في كون ربنا جل وعلا واحداً ، وفي كون كل منا له عمله ، فإنا نفترق عنكم بكوننا مخلصين العبادة لله تعالى وحده لا شريك له بينما أنتم أيها اليهود تزعمون أن عزيرا ابن الله وأنتم أيها النصارى تزعمون أن المسيح ابن الله « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » . انكم لستم مخلصين العبادة لله تعالى فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم . « والاخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين »(١) .

(١) تفسير القرطبي ص ٥٢٩ .

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

في الآية الكريمة السابقة انكار على اليهود والنصارى مجاذبتهم المسلمين الحجة في شأن اصطفاء الله تعالى محمد بن عبد الله ﷺ خاتماً للأنبياء والمرسلين من العرب ذرية اسماعيل عليه السلام وليس من بني اسرائيل. وفي هذه الآية الكريمة انكار آخر على زعم كل من اليهود والنصارى ان إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا وذلك في رأي اليهود، أو نصارى وذلك في رأى النصارى. وقد شهد الله تعالى في محكم كتابه بأن إبراهيم عليه السلام ما كان يهودياً ولا نصرانياً وبأنه كان حنيفا مسلماً قال تعالى[1]: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين»[2] وهنا يأتى الاستفهام الانكاري التوبيخي لهم: قل أأنتم أعلم أم الله؟ والجواب بطبيعة الحال معروف. ومع ذلك هم يحاجّون فيما ليس به علم. وفوق ذلك هم يكتمون شهادة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بالحنيفية السمحة. وقد جاء بناءً على ذلك هذا الاستفهام الانكاري على القوم: «ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله» ان من كتم شهادة عنده من عباد الله تعالى فإنه آثم قلبه، فكيف بكتمان شهادة من الله تعالى؟ ان الذنب أكبر والظلم أعظم. فلا ظلم أكبر من أن يكتم المرء شهادة عنده من الله. وبما أن الذي يسيرّ أهل الكتاب أهواؤهم ومصالحهم الدنيوية التي شروا بها الآخرة، فإن الآية الكريمة تختم بتهديد أهل الكتاب بأن الله سبحانه وتعالى ليس غافلاً عما يعملون وسيجازيهم يوم القيامة على تلك الأعمال.

---

(١) سورة آل عمران ٦٧.

(٢) الجلالين.

﴿١٤١﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هذه الآية الكريمة هي ذات الآية الكريمة الرابعة والثلاثون بعد المائة . وقد كررت الآية الكريمة : « لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف . أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازَوْن بكسبهم ، فأنتم أحرى . فوجب التأكيد فلذلك كررها »[1] .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٣١ .

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
تفسير سورة الفاتحة	٧
تفسير سورة البقرة (الجزء الأول)	٣١

وزارة الحج والأوقاف

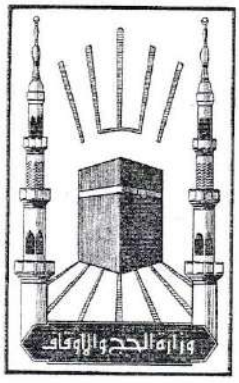

الطبعة الأولى

المطابع العربية Arabian Printers
تليفون ٦٧١٧٦٧٧ – جدة